الظروف السياسية والدبلوماسية الممهدة لمعاهد يافا (626هـ/1229م) في عهد الملك الكامل الأيوبي

تقديم: حسن فطراوي

مستخلص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل الظروف السياسية والدبلوماسية المعقدة التي مهدت لعقد معاهدة يافا (626هـ/1229م) بين السلطان الأيوبي الملك الكامل والإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، والتي ترتب عليها تسليم بيت المقدس للصليبيين. وسعى البحث إلى تفكيك هذه الأزمة التاريخية من خلال ثلاثة محاور رئيسة؛ تتبع أولها المشهد السياسي الداخلي للجبهة الأيوبية، ورصد حالة الانقسام والصراع الأخوي المحتدم الذي هيأ الأجواء للتنازل عن المدينة المقدسة كأداة للمناورة السياسية. وناقش المحور الثاني طبيعة الاتصالات الدبلوماسية السرية وقنوات الرسائل المتبادلة بين الملك الكامل وفريدريك الثاني التي سبقت وصول الحملة. في حين ركّز المحور الثالث على مجريات الحملة الصليبية السادسة، وكيفية استثمار الإمبراطور للوعود الأيوبية السابقة لتتوج المفاوضات بتوقيع المعاهدة وتسليم القدس دون قتال. واعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي لاستنتاج الدوافع الحقيقية للطرفين، وخلصت إلى أن معاهدة يافا كانت نتاجاً لتشابك المصالح الذاتية لكل من السلطان والإمبراطور على حساب الثوابت الاستراتيجية للمنطقة.

الكلمات المفتاحية: الملك الكامل الأيوبي؛ فريدريك الثاني؛ معاهدة يافا؛ بيت المقدس؛ الحملة الصليبية السادسة؛ الدبلوماسية الأيوبية

Abstract

This research examines and analyzes the complex political and diplomatic circumstances that led to the Treaty of Jaffa (626 AH / 1229 AD) between the Ayyubid Sultan Al-Kamil and the Holy Roman Emperor Frederick II, which resulted in the surrender of Jerusalem to the Crusaders. The study deconstructs this historical crisis through three main axes: The first traces the internal political landscape of the Ayyubid front, monitoring the state of division and brotherly conflict that paved the way for using the Holy City as a political bargaining chip. The second axis discusses the nature of the secret diplomatic communications and correspondence between Sultan Al-Kamil and Frederick II prior to the crusade. The third axis focuses on the events of the Sixth Crusade and how the Emperor exploited previous Ayyubid promises, culminating in the signing of the treaty and the peaceful handover of Jerusalem. Utilizing a historical-analytical approach to uncover the true motives of both leaders, the study concludes that the Treaty of Jaffa was the product of intertwined personal interests of both the Sultan and the Emperor at the expense of the region's strategic foundations.

Keywords :Al-Kamil _ Frederick II; Treaty of Jaffa; Jerusalem; The Sixth Crusade; Ayyubid Diplomacy.

مقدمة:

شهد العصر الأيوبي في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) تحولات جيوسياسية عميقة أعادت تشكيل خريطة العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب الصليبي. ولم تكن هذه التحولات وليدة الصدفة، بل كانت نتاجاً لتداخل معقد بين التفاعلات السياسية الداخلية في الجبهة الأيوبية، والمناورات الدبلوماسية الخارجية التي قادتها القوى الأوروبية. وتُعد "معاهدة يافا" التي أُبرمت في ربيع الأول من عام 626هـ / 1229م، بين السلطان الأيوبي الملك الكامل والإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، واحدة من أكثر الأحداث إثارة للجدل في التاريخ الإسلامي والوسيط على حد سواء؛ إذ ترتب عليها تسليم مدينة بيت المقدس—بكل ما تمثله من رمزية روحية وموقع استراتيجي—إلى الصليبيين دون إراقة قطرة دم واحدة، وفي وقت لم تكن فيه القوى الصليبية في موقع القوة العسكرية الفادحة التي تؤهلها لفرض مثل هذا التنازل التاريخي.

إن فهم هذه المعاهدة وتفكيك أبعادها يتطلب قراءة متأنية في الظروف الموضوعية والذاتية التي سبقتها وهيأت لها. فقد عانت الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان العادل أبي بكر بن أيوب من تصدع خطير في وحدتها السياسية، وتحول البيت الأيوبي من جبهة موحدة لمواجهة الخطر الصليبي إلى ساحة للصراعات الأخوية المحتدمة بين أبناء العادل، وتحديداً بين الملك الكامل في مصر والملك المعظم عيسى في دمشق. هذا الانقسام الداخلي لم يضعف القدرة العسكرية للمسلمين فحسب، بل أدى إلى تبدل

في الأولويات السياسية؛ حيث بات الحفاظ على العروش والمصالح الضيقة مقدماً على حفظ الثغور والمقدسات، وهو ما هيأ البيئة الخصبة للتفكير في التنازل عن بيت المقدس كأداة للمناورة وبناء التحالفات الخارجية.

وفي هذا السياق المضطرب، نشطت حركة دبلوماسية مكثفة وغير مسبوقة اتسمت بالسرية التامة والمراسلات الشخصية بين القاهرة وصقلية. فقد بادر الملك الكامل، مدفوعاً بوجس الخطر من أخيه المعظم عيسى وحلفائه الخوارزمية(الأتراك)، إلى استدعاء الإمبراطور فريدريك الثاني والتلويح له بمنحه بيت المقدس مقابل تحالف عسكري يضمن له الاستقرار في مصر وجنوب الشام. هذه الاتصالات الدبلوماسية الاستباقية كشفت عن براغماتية سياسية مفرطة من كلا الطرفين، حيث كان الإمبراطور الألماني هو الآخر يمر بأزمة حادة مع البابوية في روما، وكان يرى في استعادة القدس—حتى وإن كانت استعادة سلمية ودبلوماسية—طوق نجاة سياسي يرمم به شرعيته المتآكلة في أوروبا ويواجه به قرار الحرمان الكنسي الصادر بحقه.

وعليه، جاءت الحملة الصليبية السادسة (1228–1229م) كسياق تنفيذي وتتويج لتلك التفاهمات الدبلوماسية السابقة. وعلى الرغم من تغير المعطيات السياسية على الأرض بوفاة الملك المعظم عيسى قبيل وصول الإمبراطور إلى الشام—وهو الحدث الذي كان من المفترض أن يحرر الملك الكامل من وعوده السابقة بعد زوال الخطر الأخوي—إلا أن تشابك الالتزامات الدبلوماسية، والضغط المستمر من فريدريك الثاني، والرغبة المشتركة في تجنب الصدام العسكري الشامل، قادت الطرفين إلى طاولة المفاوضات في يافا لتوقيع الاتفاقية التاريخية المفصلية.

إشكالية البحث:

تكمن مشكلة الدراسة في محاولة الكشف عن الجدلية القائمة بين الصراع الداخلي والعمل الدبلوماسي الخارجي، وكيف يمكن للاستقطاب السياسي بين الأشقاء أن يدفع بالدول إلى التنازل عن مقدراتها الاستراتيجية. ويسعى هذا البحث إلى الإجابة عن التساؤلات الرئيسة التالية:

1. ما هي طبيعة الأوضاع السياسية والانقسامات الداخلية في البيت الأيوبي التي مهدت وهيأت الأجواء للتنازل عن بيت المقدس؟
2. كيف أديرت الاتصالات الدبلوماسية السرية بين الملك الكامل وفريدريك الثاني، وما هي الدوافع الحقيقية والمشتركة التي حركت كلا الطرفين؟
3. كيف وظفت الحملة الصليبية السادسة هذه المعطيات السياسية والدبلوماسية لتصل إلى غايتها بتوقيع معاهدة يافا وتسليم القدس سلماً؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في كشفه عن آليات "الدبلوماسية السرية" وبراغماتية القرار السياسي في العصر الأيوبي، من خلال رصد أثر الخلافات الأسرية الداخلية في توجيه العلاقات الخارجية وتشكيل مصير المقدسات. وتكتسب الدراسة قيمتها الأكاديمية من إعادة قراءة معاهدة يافا (626هـ/ 1229م)

برؤية تحليلية تتجاوز السرد التقليدي للحدث العسكري، لتسلط الضوء على تشابك المصالح والظروف الذاتية لكل من السلطان والإمبراطور. كما يثري البحث المكتبة التاريخية بتفكيك الجدلية التاريخية حول تسليم بيت المقدس سلماً، ويقدم نموذجاً تفسيرياً لكيفية تحول الرموز الدينية إلى أدوات للمناورة والتوازنات السياسية الدولية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تفكيك الجذور السياسية الكامنة وراء معاهدة يافا (626هـ/1229م)، من خلال تتبع أثر الصراعات البينية في البيت الأيوبي وأثرها في إضعاف جبهة المقاومة الإسلامية. كما يسعى إلى تسليط الضوء على طبيعة الدبلوماسية السرية والقنوات التفاوضية التي دارت بين الملك الكامل وفريدريك الثاني ومحاولة فهم الدوافع البراغماتية المشتركة بينهما. ويطمح البحث إلى تحليل سياق الحملة الصليبية السادسة وكيفية استثمارها لتلك التفاهمات المسبقة، وصولاً إلى تقديم رؤية نقدية متوازنة لآلية تسليم بيت المقدس سلماً للصليبيين بناءً على تقاطع المصالح الدولية آنذاك.

حدود البحث:

تمثل الحدود الزمانية للبحث في الحقبة التاريخية الممتدة ما بين عامي (615-626هـ / 1218-1229م)، وهي الفترة الحرجة التي تبدأ بتولي الملك الكامل سلطنة مصر وتصاعد الصراع الأخوي في البيت الأيوبي، وصولاً إلى مجريات الحملة الصليبية السادسة وتوقيع معاهدة يافا، وتنحصر حدوده المكانية في إقليمي مصر وبلاد الشام (تحديداً القاهرة، دمشق، يافا، وبيت المقدس) باعتبارها المسرح

الرئيس للأحداث والمفاوضات، مع امتداد دبلوماسي يربط هذه المنطقة بالبلاط الإمبراطوري لفريدريك الثاني في جنوب أوروبا (إيطاليا وصقلية).

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي بشقيه الوصفي والتحليلي ، حيث سيتم سرد الوقائع التاريخية بالاستناد إلى المصادر الأولية لتتبع التسلسل الزمني للأحداث ، وبالتوازي سيتم استخدام أداة التحليل السببي لربط الأسباب بالنتائج.

أولاً . الظروف والمحددات السياسية الممهدة لتسليم بيت المقدس:

يعزى فشل الحملة الصليبية الخامسة بشكل أساسي إلى تحالف أبناء الملك العادل بعد وفاته، وكذلك التنسيق فيما بينهم لمواجهة الأخطار المحدقة بسلطانهم، إلا أن تلك الحالة من الارتباط لم تستمر طويلاً، فمجرد انتهاء الحملة أصبح العداء والتآمر سيد العلاقات بين الأبناء، وذلك بسبب الأطماع والرغبة في زيادة السيطرة والنفوذ على حساب بعضهم البعض، وكتب التاريخ حافلة بذكر مثل تلك الأطماع، حيث يذكر (سبط بن الجوزي) أنه عندما عاد الملك الأشرف سنة 620هـ/ 1223م من مصر إلى الشام التقى بالملك المعظم وعرض عليه النزول في القلعة إلا أنه رفض، ثم يذكر ابن الجوزي أن حالة من عدم الثقة كانت تسيطر على العلاقة بين الأخوة الأشرف والمعظم والكامل، كما أن الأشرف

كان بعد ذهابه إلى مصر قد عيّن أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين[1] على خلاط[2]، وعلى جميع البلاد، إلا أن شهاب الدين طمع بالسلطة لنفسه وأراد العصيان، فطلبه الأشرف وحاول إقناعه بعدم العصيان وعدم الإستماع إلى الذين كانوا يحرضونه عليه، إلا أن شهاب الدين أصرّ على العصيان الأمر الذي أدى إلى المشاكل بين الأخويين[13].

أراد الملك الكامل ضم الشام إلى مصر، وجعل أبنه الملك مسعود صاحب اليمن ملكاً عليها، كما أن الملك المعظم واجه تآمر أخويه الأشرف والكامل اللذان كانا يسعيان إلى أخذ مملكته منه، الأمر الذي دفعه إلى التحالف مع جلال الدين خوارزم شاه ملك فارس وأذربيجان، وكذلك مع مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب أربل، ووضع المتحالفون الثلاث الخطط لمهاجمة أملاك الأشرف والكامل، وكان الأشرف لا يستطيع لوحده بمفرده مواجهة ذلك الحلف، خاصة أن الكامل في مصر بعيد عنه، وبنهاية المطاف اضطر الأشرف إلى الذهاب للمعظم في دمشق وطلب الصلح، فأقام عنده لمدة عشرة أشهر كالأسير، ولم يطلق سراحه إلا بعد أخذ تعهد منه يقضي بتقديم المساعدة للمعظم للسيطرة

---

[1] ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر (تركيا) ،الحموي(ياقوت بن عبدالله ت:): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، مج5 ، ص 235.

[2] خلاط: قصبة أرمينية الوسطى تقع في الإقليم الخامس ، الحموي: معجم البلدان ، مج3 ، ص381.

[3] سبط بن الجوزي(شمس الدين يوسف ت:654هـ):مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد بركات، دار الرسالة العالمية، دمشق،ط1، 2013م، ج22، ص262، 263،عاشور(سعيد عبدالفتاح):مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص83.

على حمص وحماة، وكذلك مهاجمة الكامل في مصر، إلا أن الأشرف بمجرّد أن أفلت من قبضة المعظم تنصّل من تعهداته وأخبر الكامل بما جرى بينه وبين المعظم[1].

ومن هنا ، يتضح للباحث مدى خطورة الأوضاع التي ألت إليها بلاد الشام جراء الخلافات العميقة بين الأخوة الملوك، والتي أضعفت شوكتهم وقوضت تماسكهم ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل دفعهم هذا التنافس إلى البحث عن دعم خارجي لقتال إخوانهم ، مما كبد الشام خسائر جسيمة واستنزافاً مستمراً لطاقاتها ، ظهرت آثاره وتداعياته الخطيرة بشكل جلي على المدى البعيد.

كان يسيطر على الموقف جو من علاقات التعاون والتنسيق، وقد ظهر ذلك عندما بدأ الأتراك الخوارزمية[2] يشكلون تهديداً حقيقياً على الأيوبيين[23]. حيث أن ملك خوارزم جلال الدين منكبرتي كان قد عاد من الهند إلى بلاد فارس بعد أن اضطر إلى مغادرتها هرباً من المغول، ثم دخل جلال الدين

---

[1] حجازي(فايزه): العلاقات الدبلوماسية بين الملك الكامل (615. 635هـ/ 1218. 1238م) وفريدريك الثاني (594. 648هـ/ 1197. 1250م) من خلال المصادر الإسلامية، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج12، عد1، 2015، ص6، 7.

[2]الخوارزمية:يرجع نسب ملوك هذه الدولة إلى عبد تركي كان يسمى (أنوشتكين) ، اشتراه أحد أمراء السلاجقة في جرجستان،النويري(أحمد بن عبد الوهاب ت:733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب ،تح: نجيب فواز وحكمت فواز ،دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت ، ج27، ص 177،محمود(حسن أحمد) والشريف(احمد إبراهيم): العالم الإسلامي في العصر العباسي ،دار الفكر العربي ، القاهرة،ط5، د.ت، ص 613.

[3] غنيم(اسمت): الدولة الأيوبية والصليبيون،دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995م، ص87، طقوش (محمد سهيل): تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ،دار النفائس، بيروت،ط2، 2008م، ص 324.

بغداد عنوةً سنة 622هـ/ 1225م الأمر الذي دفع بالأيوبيين إلى الإستعداد لمواجهة خطر الخوارزميين[1].

ثانياً- القنوات والاتصالات الدبلوماسية بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني:

بسبب الصراعات المتجددة داخل البيت الأيوبي ، تطلع الملك الكامل إلى كسب تحالف سياسي متين يقوي من خلاله مركزه أمام بقية الأخوة الملوك، وقد وجد في شخص الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني ضالته، فأرسل إليه الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ يطلب منه القدوم إلى عكا، ووعده بتسليمه بيت المقدس والمناطق التي افتتحها صلاح الدين، وكان السبب المباشر لفعلة الكامل تلك هو أنه أراد أن يضغط على أخيه المعظم ليدخل في طاعته[2]. وفي هذا السياق يشير صاحب كتاب(ذيل مرآة الزمان) إلى أن الملك الكامل ندم على مراسلته للإمبراطور الألماني وذلك بعد موت الملك المعظم، إذ رأى أنه لم يعد للكامل حاجة من مجيئه[3].

نتج عن اتصال الكامل بالإمبراطور الألماني زيادة في إرباك المشهد في الشام ومصر، ودفع إلى إعادة تموضع الملوك والأمراء فيما يخص تحالفاتهم، فبمجرد وصول الخبر إلى مسامع المعظم

---

(1) ابن واصل(محمد بن سالم ت: 697هـ):مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين شيال وآخرون ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، 1957م ،ج4، ص143. 146.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج4، ص206، 207.

(3) اليونيني(قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني ت 726 هـ): ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ط2، 1413هـ . 1992م، ج2، ص125.

سارع بالاتصال بالسلطان جلال الدين الخوارزمي طالباً منه النجدة على الكامل مقابل أن يخطب له ويضرب السكة باسمه، فأرسل جلال الدين إليه خلعة وقطع الخطبة للكامل في دمشق، أما الكامل فلما بلغه ذلك جهّز جيشاً وأراد الخروج به من مصر إلى الشام، وقبل الوصول جرت مراسلة بين الأخوين عبّر فيها المعظم عن ولائه ومحبته للكامل، وذكره بأنه أول من قام بنجدته في مصر، فرجع الكامل إلى مصر وشن حملة إعتقالات طالت شخصيات عدة ثبت تورطها بإجرائها مراسلات مع المعظم، وفي هذه الأثناء سنة 623هـ/ 1226م، وصل مبعوث الإمبراطور فريدريك إلى الكامل، محملاً بالهدايا الثمينة والغريبة بنفس الوقت، وقد تلقى الكامل الهدايا بنفسه وأكرم المبعوث أحسن إكرام، ثمّ أرسل شخص يدعى جمال الدين بن منقذ الشيزري إلى الإمبراطور محمّلاً بهدية ثمينة، فاقت قيمتها أضعاف قيمة هدية الإمبراطور[1].

لم يكتفي الإمبراطور فريدريك الثاني بمراسلة الكامل فقط، بل إن رسوله بعد أن قابل الكامل ذهب لمقابلة المعظم طالباً منه الموافقة على تسليم ما كان قد اتفق مع الكامل على تسلّمه، إلا أن جواب المعظم كان جواباً غليظاً، إذ قال للرسول: " قل لصاحبك: ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى

[1] المقريزي(أحمد بن علي ت:845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 1997م ،ج1، ص345،الحايك (منذر): العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ،تق: سهيل زكار ،الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2006م، ج1 ،ص238.

السيف "، وكان من الممكن أن يشكل المعظم تهديداً لحملة فريدريك لو لا أنّ الموت قد عاجله سنة 624ه/ 1227م[1].

وبصفة عامة ، بادر المعظم باتخاذ سلسلة من الإجراءات العدائية ضد الإمبراطور فريدريك، كان منها: إرساله الجواسيس إلى صقلية لرصد أخبار الامبراطور وتحركاته، والقيام بتجهيزات عسكرية لحماية القدس، إلا أن الموت كان أسرع، فخلف الأعظم أبنه الناصر داوود، الذي وقعت بينه وبين عمه الكامل عداوة وأراد الكامل أخذ ممتلكات الناصر، ثم قام الملك الأشرف بلعب دور الوساطة لتهدئة الأجواء[3]

ثالثاً- أحداث الحملة الصليبية السادسة وتداعيات معاهدة يافا (626ه/ 1229م):

تصنف الحملة الصليبية السادسة كواحدة من أكثر الحملات الصليبية تميزاً واستثناءً في تاريخ المشرق الإسلامي ،ويعود ذلك إلى عدة عوامل أبرزها: كانت تتألف فقط من ستمائة جندي، وثانياً: أنها حصلت من دون قتال ومن دون إهراق قطرة دم واحدة، وقد جاء في خبر هذه الحملة أن فردريك الثاني، قائد تلك الحملة وهو امبراطور ألمانيا والصقليتين (صقلية ونابولي) كان قد وقّع سنة 626ه/ 1229م اتفاقية مع الملك الكامل استولى بموجبها على بيت المقدس من دون قتال[2].

---

[2] سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج22، ص284. [3]حجازي: العلاقات الدبلوماسية، ص8.

[2] العبادي(أحمد مختار): في التاريخ الأيوبي والمملوكي ،مؤسسة شباب الجامعة ، مصر، د.ت، ص79، عاشور(سعيد عبد الفتاح): الإمبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي، العدد 11، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية،1963م، ص 203.

أصرت الباباوية على إرسال حملة صليبية جديدة إلى المشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، وقد عرض البابا هونوريوس الثالث على الإمبراطور فريدريك الزواج من إيزابيل أبنة حنا دي بريين ملك القدس بعد وفاة زوجة الإمبراطور السابقة، وكان ذلك العرض لتشجيع الإمبراطور التوجه إلى الشام، كما أن البابا تعهد بمبلغ مالي للإمبراطور عند توجهه إلى الشرق، وقد ماطل الإمبراطور بتنفيذ رغبة البابا، وبقي كذلك حتى وفاة البابا هونوريوس الثالث وإستلام بابا جديد هو جريجوري التاسع وكان ذلك سنة 625هـ/ 1227م، وقد أصرّ البابا الجديد على تنفيذ ما كان البابا القديم يعمل عليه، فلم يجد الإمبراطور فردريك الثاني هذه المرة مهرباً من التنصل من ذلك، خاصة أن البابا قد هدده بعقوبة الحرمان، عندها عزم الإمبراطور سنة 625هـ/ 1227م الخروج إلى الشام إلا أن المرض دفعه إلى تأجيل الخروج إلى العام التالي[1].

أما عن العلاقات بين بين ملوك الأيوبيين فقد وصلت إلى أدنى مستوى من التوتر والصراع في مستهل العام 626هـ/ 1228م، كما أن واقع الحال قد تغير، خاصة أن الملك المعظم كان قد مات، ولذلك فإن موقف الكامل من الصليبيين تغير، وأصبح أكثر تشدداً اتجاههم، كما أن المسلمين اجتمعت كلمتهم على عدم التفريط بالمدن التي كان قد فتحها صلاح الدين، مما دفع ذلك إلى قيام نوع من

---

[1] حجازي: العلاقات الدبلوماسية بين الملك الكامل (615. 635هـ/ 1218. 1238م) وفريدريك الثاني (594. 648هـ/ 1197. 1250م) من خلال المصادر الإسلامية، ص5، 6،مونروند (مكسيموس): تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، تر: مكسيموس مظلوم ،دير الرهبان الفرنسيسكان ، القدس، 1875م ،ج2 ، ص268،رانسيمان (ستيفن): تاريخ الحملات الصليبية ، تر: نور الدين خليل ،الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ، مصر،2000م ،ج3 ، ص223.

المصالحة بين ملوك الأيوبيين، ثم تمّ الاتفاق على تسليم بيت المقدس للصليبيين فقط، وبقاء بقية المدن بيد المسلمين[1].

لم يستطع الملك الكامل بنهاية المطاف التنصل من وعوده السابقة للإمبراطور فريدريك الثاني، فاضطر أخيراً إلى التفاوض معه ومن ثمّ تم الإتفاق على جملة من الترتيبات سميت بمعاهدة (يافا629هـ/ 1229م)، و يمكن جمعها بالتالي:

1. تسليم القدس للصليبيين، على أن تبقى أسوارها مهدّمة، بالإضافة إلى الناصرة وبيت لحم واللد وعكا وغيرها من المناطق[2].

2. يتعهد الصليبيون بعدم المساس بقبة الصخرة وكذلك الجامع الأقصى، ولا يدخلها إلا للزيارة، ويتولى شؤونها المسلمون.

---

[1]أبو الفدا (إسماعيل بن علي ت:732هـ): المختصر في أخبار البشر ،تح: محمد زينهم وآخرون ،دار المعارف، القاهرة، ط1، د.ت ،ج3 ، ص 141،ابن الوردي (عمر بن المظفر ت:749هـ): تاريخ ابن الوردي ،دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1996م، ج2 ، ص147، الحنبلي (أحمد بن إبراهيم ت: 876هـ) : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تح: ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1978م، ص311.

[2] العيني (بدر الدين محمود العيني ت: 855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – العصر الأيوبي، تح: محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، د.ت، ج4، ص204، الحموي: التاريخ المنصوري ، ص 176.

3. جميع القرى التابعة للقدس تبقى بيد المسلمين، ويسمح للمسيحيين دخول المناطق المقدسة للعبادة، على ألا يحملوا خلال دخولها السلاح، كما أنه ممنوع عليهم السكن داخل تلك المدن بل عليهم مغادرتها فور إنتهاء شعائرهم الدينية[1].

4. بعض القرى على طريق عكا . القدس تكون بيد الصليبيين ضماناً لسلامتهم.

ثم بعد ذلك حلف الكامل والامبراطور على ما تم الإتفاق عليه ضمن الشروط سابقة الذكر، وعقدوا الهدنة لمدة عشر سنوات،[2] ومن ثم أفرغ الكامل القدس من المسلمين وتمّ تسليمها للصليبيين[1].

شكلت واقعة تسليم القدس للإمبراطور فريدريك صدمة عميقة نفوس المسلمين، خاصة بسبب ما عدوه تهاوناً ورضوخاً من قبل الكامل للصليبيين، وقد روى (سبط بن الجوزي) حادثة عبر فيها عن حالة الضعف التي ظهر بها الكامل، إذ قال بما معناه أن الكامل كان قد أمر قاضي نابلس بأن يأمر المؤذنين بأن لا يصعدوا المنابر ولا يؤذنوا ما دام الإمبراطور في القدس، وقد نسي القاضي إعلام المؤذنين بذلك، فصعد أحدهم في وقت السحر إلى المنبر وجعل يقرأ آيات مختصّة بالنصارى، وصادف

---

[1]حسين (حمدي محمد): تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 2000م، ص 119،زيدان (عبد السلام): قطع الأسطول الأيوبي وأسلحته في عهد صلاح الدين(564-589هـ/1169-1193م)،مجلة جامعة حمص للعلوم الإنسانية، العدد24، 2019م،كلية الاداب والعلوم الإنسانية، سوريا، 2019م،ص117.

[2] حجازي: العلاقات الدبلوماسية بين الملك الكامل (615. 635هـ/ 1218. 1238م) وفريدريك الثاني (**594.** 648هـ/ 1197. 1250م) من خلال المصادر الإسلامية ، ص10، 11.

وقتها أن الإمبراطور كان في منزل قاضي نابلس، فلما طلع الفجر استدعى القاضي المؤذن وأبلغه عن عدم تكرار ذلك. ولما كان اليوم التالي لم يصعد المؤذن إلى المنبر، فلما طلع الفجر استدعى الإمبراطور القاضي وسأله عن أمر ذلك المؤذن وعن عدم سماع صوته كما كان في الليلة السابقة، فأخبره القاضي أن الكامل قد أمر بذلك، فاستغرب الإمبراطور وطلب منه أن لا يغيرون في شعائرهم ودينهم شيئاً لأجله[1].

تأسيساً على ما سبق، يستنتج الباحث أن معاهدة يافا لم تكن مجرد إتفاقية دبلوماسية عابرة، بل شكلت صدمة نفسية وسياسية كبرى في الوجدان الإسلامي جراء التنازل عن بيت المقدس دون قتال، ورغم الشروط المقيدة التي وضعت على السكان والتحصينات ، ورغم المظاهر البروتوكولية التي أبداها الإمبراطور فريدريك الثاني تجاه الشعائر الإسلامية كمحاولة لتهدئة الأوضاع ، إلا أن المعاهدة عمقت حالة الشرخ والانقسام داخل البيت الأيوبي ، وأظهرت مدى خطورة تغليب المصالح السياسية الضيقة على الثوابت والمقدسات.

[1] الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، ص 312 ، كرد علي(محمد بن عبد الرزاق ت: 1372ه): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق ،ط3، 1983م ،ج2، ص88، 89،عبدو (محمد):دور الإمبراطور فريدريك الثاني في الحروب الصليبية (609-648ه/ 1212-1250م)، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام ،لم ينشر، جامعة حمص،2021م،ص 157.

خاتمة:

شكلت معاهدة يافا (626هـ / 1229م) نموذجاً فريداً لدبلوماسية الأزمات القائمة على تقديم التنازلات السيادية الكبرى مقابل الحفاظ على المكاسب السلطوية الضيقة. وقد أثبتت الدراسة أن تشرذم الجبهة الداخلية للبيت الأيوبي والصراع الأخوي المحتدم بين الملك الكامل وأخيه الملك المعظم عيسى، كان هو العامل الحاسم الذي هيأ فكرة التنازل عن بيت المقدس كأداة للمناورة السياسية والاستقواء الخارجي لحماية العرش في مصر.

وجاءت قنوات الاتصال السرية مع الإمبراطور فريدريك الثاني لتلبي مصالح مصلحية متبادلة؛ فالكامل أراد حليفاً ضد جبهة دمشق، بينما سعى الإمبراطور وراء نصر دبلوماسي سريع يرمم شرعيته المتآكلة في أوروبا ويفك عنه قرار الحرمان الكنسي دون خوض حرب استنزاف عسكرية. ورغم أن وفاة المعظم عيسى قبيل وصول الحملة الصليبية السادسة كانت كفيلة بتحرير الكامل من وعوده، إلا أن الالتزامات السياسية السابقة وضغوط الإمبراطور جعلت التراجع أمراً مستحيلاً، فجاءت مفاوضات يافا كحل وسط لتسليم المدينة سلماً مع الإبقاء على الحرم القدسي تحت السيادة الإسلامية.

وفي الختام، يؤكد البحث أن المعاهدة لم تكن نتاج انكسار عسكري بل محصلة لسياسة واقعية مفرطة قدمت المصالح الآنية على الحسابات الاستراتيجية، مما جعلها هدنة مؤقتة محكومة بالفشل أثارت غضب الطرفين ومهدت لعودة الصراع التاريخي حول المدينة المقدسة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً_ المصادر:

الحموي (ياقوت بن عبد الله ت:):

1-معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م.

الحنبلي (أحمد بن إبراهيم ت:876ه):

2-شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد،دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1978م.

سبط بن الجوزي(شمس الدين يوسف ت:654ه):

3-مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ،تح:محمد بركات،دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2013م.

العيني (بدر الدين محمود ت:855ه):

4-عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تح:محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق ، القاهرة، د.ت.

أبو الفدا (إسماعيل بن علي ت:732ه):

5-المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم، دار المعارف ، القاهرة ، ط1، د.ت.

المقريزي(أحمد بن علي ت:845ه):

6-السلوك لمعرفة دول الملوك،تح: محمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1997م.

النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت: 733ه):

7-نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب فواز وحكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ابن واصل(محمد بن سالم ت:697ه):

8-مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح:جمال الدين شيال وآخرون، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1957م.

ابن الوردي (عمر بن المظفر ت: 749هـ):

9-تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1996م.

ثانياً_ المراجع العربية:

الحايك(منذر):

1-العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ، تق :سهيل زكار، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2006م.

حسين(حمدي محمد):

2-تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م.

طقوش (محمد سهيل):

3-تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس ، بيروت، ط2، 2008م.

عاشور (سعيد عبد الفتاح):

4-مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م.

العبادي(أحمد مختار):

5-في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د.ت.

غنيم (اسمت):

6-الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995م.

كرد علي(محمد بن عبد الرزاق ت:1372هـ):

7-خطط الشام، مكتبة النوري ، دمشق، ط3، 1983م.

محمود(حسن أحمد) والشريف (أحمد إبراهيم):

8-العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط5، د.ت.

ثالثاً_ المراجع المعربة:

رانسيمان (ستيفن):

1-تاريخ الحملات الصليبية، تر: نور الدين خليل، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ، مصر، 2000م.

مونروند(مكسيموس):

تاريخ الحروب المقدسة في المشرق،تر:مكسيموس مظلوم، دير الرهبان والفرنسيسكان ، القدس، 1875م.

رابعاً_الرسائل الجامعية:

-عبدو (محمد):

1-دور الأمبراطور فريدريك الثاني في الحروب الصليبية (609_648هـ/1212_1250م)، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام،لم ينشر، جامعة حمص، 2021م.

خامساً_المقالات :

حجازي (فايزة):

1-العلاقات الدبلوماسية بين الملك الكامل وفريدريك الثاني من خلال المصادر الإسلامية ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج12 ، العدد 1.

عاشور (سعيد عبد الفتاح):

2-الإمبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 11، 1963م.

زيدان (عبد السلام):

3-قطع الأسطول الأيوبي وأسلحته في عهد صلاح الدين (564_589هـ/1169_1193م) ، مجلة جامعة حمص للعلوم الإنسانية، العدد24، 2019م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،سوريا، 2019م.